

السعِيدُ حَسَنٌ

السعِيدُ حَسَن

تألِيف
كامل كيلاني



السعید حسن

كامل كيلاني

رقم إيداع ٢٠١٢ / ١٦٤٠٦
تمك: ٧١٩ ٧٧٧ ٩٧٨ ٠٠٧٧

مؤسسة هنداوى للتعليم والثقافة
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوى للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٠١٢/٨/٢٦

إن مؤسسة هنداوى للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حى السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: +٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ فاكس: +٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: <http://www.hindawi.org>

رسم الغلاف: ورود الصاوي.

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوى
للتعليم والثقافة. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية
العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2011 Hindawi

Foundation for Education and Culture.

All other rights related to this work are in the public domain.

السعِيدُ حَسَن

(١) حَدِيثُ الْجَدَّةِ



جلست راوية هذه القصة بين أولادها وحفدتها، أعني: أولاد أولادها. كانت الجدة - حينئذ - في الثمانين من عمرها. وقد تعود الحفدة - من بين وبنات - أن يجتمعوا حولها قبيل النوم؛ ليسنعوا منها طرائف من القصص، وبذائع من الأخبار والأسماres.

وكانت الليلة من ليالي الشتاء الباردة. جلس الحفدة ملتفين حول جدتهم العجوز، يسألونها - على عادتهم - أن تحدثهم بعجيبة من أقصي صاحبها المبدعة التي ألقوا سماعها منها. فأسرعت إلى تلبية رجائهم، وأقبلت عليهم، تروي لهم القصة التالية؛ فأرهفوا لها آذانهم من حيث لا ينتبه.

قالت الجدة العجوز: «ما أعجب سير الزمن، وما أسرع كر الأيام، ومرا الأعوام! لقد سمعت هذه القصة المغببة منذ سبعين عاماً، ولا أزال - الليلة - أذكرها؛ لأنّما سمعتها من جدتي البارحة (أقرب ليلة مضت).

وما زالت حوادثها تتتمثل في خاطري، وصوت جدتي العذب الحنون يرن في ذهني! كنت في العاشرة من عمري حينئذ، أي: في مثل سنك، يا نحيب. وكنت أصغر من إخوتي، كما أنت - يا نحيب - أصغر من إخوتك. وكانت الأرض مغطاة بما تساقط من الثلج في الصباح.

فلما جاء الليل، شهدنا ليلة كانت - على شدة بردّها - صافية السماء، لامعة النجوم. وأخذت الأسرة تحتفي بالعيد كما نحتفي به الآن.

(٢) أسعد الناس

وكانت جدتي قد وعدتنا أن تقص علينا - متى حلّت ليلة العيد - قصة «السعيد حسن». فلما ذكرناها وعدها قالت: «لعلكم تظنون أن «السعيد حسن» كان سلطاناً من السلاطين، أو أميراً من الأمراء. لكم العذر؛ لأن كثيراً من الناس يحسبون أن السعادة لا توجد إلا حيث الغنى والجاه.

**سَتَبَيِّنُونَ — بَعْدَ سَمَاعِ قَصَّتِهِ — أَنَّ مَنْ يَظْنُونَ مِثْلَ هَذَا الظَّنَّ يَعِدُونَ عَنِ الصَّوَابِ،
بُعْدَ الْأَرْضِ عَنِ السَّمَاءِ:**

لَمْ يَكُنْ «السَّعِيدُ حَسَنُ» سُلْطَانًا وَلَا أَمِيرًا، وَلَا وزِيرًا. كَلَّا، لَمْ يَكُنْ وَاحِدًا مِنْ هُؤُلَاءِ.
بَلْ لَعْلَهُ كَانَ فِي عَصْرِهِ مِنْ أَفْقَرِ الْفُقَرَاءِ. وَلَكِنَّهُ عَاشَ — مَعَ هَذَا — مِنْ أَسْعَدِ النَّاسِ.
لَقَدْ صَدَقَ «السَّعِيدُ حَسَنُ» حِينَ كَانَ يَقُولُ لِنَفْسِهِ دَائِمًا: «إِذَا عَجَزَ الْإِنْسَانُ عَنْ أَنْ
يَكُونَ أَغْنَى النَّاسِ، فَلَنْ يَعْجِزْ عَنْ أَنْ يَكُونَ أَشْرَفَ النَّاسِ. لَنْ يُكَفِّهِ ذَلِكَ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ
يَتَحَلَّ بِالشَّجَاعَةِ وَالصَّدْقِ وَكَرَمِ النَّفْسِ».

(٣) عِيدُ الْفَقِيرِ

لَعَلَّكُمْ تَدْهَشُونَ إِذَا قُلْتُ لَكُمْ: إِنَّ «السَّعِيدَ حَسَنًا» كَانَ فَلَاحًا فَقِيرًا، يَعِيشُ فِي كُوْخٍ صَغِيرٍ،
تُحِيطُ بِهِ بَعْضُ الْحَشَائِشِ، عَلَى مَقْرَبَةِ مِنْ غَايَةِ كَثْيَةٍ، مَمْلُوَّةٌ بِالْأَشْجَارِ.
وَقَدْ أَفْعَدَهُ الْمَرَضُ عَنِ الْعَمَلِ شَهْرِيْنِ، ثُمَّ أَقْبَلَ الْعِيدُ عَلَى الْأُسْرَةِ وَلَيْسَ فِي الْكُوْخِ
أَكْثَرُ مِنْ الْخُبْرِ الْيَابِيسِ: الْخُبْرُ الْيَابِيسِ وَحْدَهُ.
أَمَّا الْحَلْوَى وَالْفَطَائِرُ وَاللَّحْمُ وَاللَّبَنُ وَالْقِشْدَةُ وَمَا إِلَيْهَا مِنْ أَلوَانِ الطَّعَامِ، فَقَدْ بَعْدَ
عَهْدِ الْأُسْرَةِ بِهِ، فَنَسِيَّتُهُ.

عَلَى حِينَ كَانَ الْأَعْنَيَاءُ يَحْتَفِلُونَ بِالْعِيدِ، وَمَوَائِدُهُمْ تَرْخَرُ بِمَا لَذَّ وَطَابَ مِنَ الْأَطْعَمَةِ
الشَّهِيَّةِ، وَالْأَشْرِيقَةِ السَّائِنَةِ الْهَنِيَّةِ.

عَلَى أَنَّ الْبُوَسَ وَالْفَاقَةَ لَمْ يَنالَا مِنْ نُفُوسِ هَذِهِ الْأُسْرَةِ الطَّيِّبَةِ الْخَيْرَةِ مَنَالًا.
لِبِّثَ رَبُّ الْأُسْرَةِ وَرَوْجُهُ الْمَرِيضَانِ صَابِرِيْنِ، لَمْ يَفْقَدَا الثَّقَةَ بِاللَّهِ وَالْإِيمَانَ بِهِ، وَلَمْ
يَيْأسَا مِنْ رَحْمَتِهِ، وَلَمْ تَعْرِفِ الشَّكُوْيَ إِلَى قَلْبِيهِمَا سَيِّلًا.
كَانَا يَعْوَلَانِ أَطْفَالًا أَرْبَعَةَ، بَرَحُ بِهِمُ الْجُوعُ، وَاشْتَدَّ بِهِمُ الضَّعْفُ وَالْهُرَاجُ؛ فَأَصْبَحُوا
لَا يَكَادُونَ يَسْتَطِيعُونَ الْحَرَكَةَ. فَجَاسُوا مُتَلَاصِقِيْنَ: بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، عَلَى صُندُوقٍ قَدِيمٍ
مِنَ الْخَشَبِ الْبَالِيِّ، إِلَى جِوارِ قِطْعَةِ حَشْنَةِ مِنَ الْحَصِيرِ، اتَّخَذُوهَا مَقْعَدًا لِجُلوسِهِمْ نَهَارًا،
وَفِرَاشًا لِنَوْمِهِمْ لَيَلَّا.

لَمْ تَتَمَّالِكْ امْرَأَةُ الْحَطَابِ – فِي لَيْلَةِ الْعِيدِ – أَنْ تَذْرِفَ مِنْ عَيْنَيْهَا دَمْعَتَيْنِ، بَعْدَ أَنْ أَطَالَتْ تَفْكِرُهَا فِيمَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ حَالُهَا وَحَالُ أُولَادِهَا مِنَ الْعَوْزِ وَالْفَاقَةِ.
لِكَنَّهَا سُرْعَانَ ما نَدِمَتْ عَلَى اسْتِسْلَامِهَا لِلضَّعْفِ، وَحَشِيشَتْ أَنْ يَقْطُنَ إِلَيْهَا أَطْفَالُهَا الصَّغَارُ، فَتَكُونَ لَهُمْ مَثَلًا سَيِّئًا.



كَفَحَتْ دَمْعَيْهَا فِي الْحَالِ، وَالتَّفَتْ قَائِلَةً: «هَلْمُوا أَيُّهَا الْأَطْفَالُ الصَّابِرُونَ، هَلْمُوا بَنْتَهُنْ إِلَى اللَّهِ ذَاءِعِينَ أَنْ يَكْشِفَ عَنَّا هَذَا الْبَلَاءَ، وَيُفَرِّجَ هَذِهِ الضَّائِقَةَ؛ فَإِنَّهُ لَا يَرُدُّ دُعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَاهُ.»

وَجَاءَ الْمَسَاءُ مُظْلِمًا بَارِدًا، وَبَدَأَتِ السَّهْرَةُ الْعَابِسَةُ، لِهَذِهِ الْأُسْرَةِ الْفَقِيرَةِ التَّاعِسَةِ.
كَانَ خَيْرًا لَهُمْ لَوْ أَنَّهُمْ رَقَدُوا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكُهُمُ اللَّيْلُ؛ فَإِنَّهُمْ – إِذْ يَنَامُونَ – يَنْسُونَ الْآمَهُمْ.

لِكَنَّ هُؤُلَاءِ الْفُقَرَاءِ الْأَخْيَارَ أَبُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَقْبِلُوا الْعِيدَ بِالسَّهْرِ، وَيُقْطِعُوا لَيْلَهُ بِالْحِدِيثِ
وَالسَّمَرِ.

وَلَمَّا رَجَعَ أَبُوهُمْ إِلَى بَيْتِهِ قَالَ لَهُمْ: «أَعَادَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْعِيدَ بِالْخَيْرِ وَالْبَرَكَاتِ». فَرَدُوا عَلَيْهِ تَحِيَّةً شَاكِرِينَ، مُبْتَهِجِينَ بِعِوْدِهِ فَرَحِينَ.

(٤) جُذُعُ الشَّجَرَةِ

ثُمَّ وَضَعَ الْأَبُوْخَ خَلْفَ بَابِ الْكُوْخِ مَلْطَسَهُ وَفَاسِهُ، وَقَالَ: «إِذَا كَانَتْ تَنْقُصُكُمْ مُتْعَ الْعِيدِ وَخَلْوَاهُ، فَلَا يَزَالُ أَمَامَكُمْ مَجَالٌ لِلْبَهَجَةِ وَالسُّرُورِ بِحَيَاةِ وَالدِّينِ، وَبِمَا مَنَّ اللَّهُ بِهِ عَلَيْكُمْ مِنْ صِحَّةٍ وَعَافِيَةٍ وَهُدُوءٍ بِالْأَسْبَابِ». لَيْسَ يَنْقُصُنَا فِي هَذِهِ الْلَّيْلَةِ الْبَارِدَةِ إِلَّا الدَّفْءُ وَحْدَهُ. وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا بِهِ، وَهَيَّأَنَا أَسْبَابَهُ.

فَلَنْخُضِرْ جِذْعَ «بُلُوطَ الْمَلِكِ»: هَذِهِ الشَّجَرَةُ الْمُجاوِرَةُ لِبَيْتِنَا. فَقَالَ أَوْلَادُهُ: «أَتَعْنِي شَجَرَةَ الْكَسْتَنَا» الْجَافَةَ الَّتِي نُسَمِّيَّهَا: شَاهُ بُلُوطٌ؟ فَقَالَ لَهُمْ بِاسْمًا: «لَسْتُ أَعْنِي غَيْرَهَا. وَقَدْ بَقَيْتُ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِ سَنَوَاتٍ دُونَ أَنْ نُفَكَّرَ فِي الْإِنْتِفَاعِ بِهَا. ثُمَّ ذَكَرْتُهَا الْيَوْمَ؛ فَقَطَعْتُ جِذْعَهَا لِأَهْيَئِ لَكُمُ الدَّفْءَ. وَلَا أَكُنْ أَنَّى عَجِبْتُ مِنْ صَلَابَةِ هَذَا الْجِذْعِ وَثَقَلِهِ، وَأَنَا أَعْمَلُ فِيهِ فَأْسِيَ وَمَلْطَسِي. فَلَنْخُمِدِ اللَّهُ عَلَى مَا يَسَّرَ لَنَا مِنْ أَسْبَابِ النَّعْمَةِ وَالسُّرُورِ. نَحْنُ – عَلَى فَقْرِنَا – قَدْ أَصْبَحَ لَدِينَا الْلَّيْلَةَ مِنْ وَسَائِلِ الدَّفْءِ مِثْلُ مَا عِنْدَ أَمِيرِ الْبَلْدِ فِي قَصْرِهِ.

إِذْهَبُوا – يَا أَوْلَادِي – وَجِئْنُوا بِالْجِذْعِ. فِي إِمْكَانِكُمْ – أَنْتُمُ الْأَرْبَعَةَ – أَنْ تُحْضِرُوهُ مَعًا.» فَرِحَ الْأَوْلَادُ، وَخَرَجُوا – هُمْ وَأَمْهُمْ – مِنَ الْكُوْخِ، ثُمَّ عَادُوا يَحْمِلُونَ الْجِذْعَ الْكَبِيرَ. كَانَ الْجِذْعُ شَدِيدَ التَّقْلِيْلِ كَمَا وَصَفَ أَبُوهُمْ؛ فَأَتَعَبَ الْأَبْنَاءَ حَمْلُهُ، حَتَّى بَلَغُوا الْكُوْخَ.

(٥) في المُوْقِدِ

وَمَا إِنْ وَضَعُوا الْجِذْعَ حَتَّى قَالُوا لِأَبِيهِمْ: «يُخَيِّلُ إِلَيْنَا أَنَّ فِي الْجِذْعِ شَيْئًا حَفِيًّا، لَا نَدْرِي حَقِيقَتَهُ. لَئِنْ صَحَّ ظَنُّنَا لِيَكُونَنَّ هَذَا الْجِذْعُ مَسْحُورًا». فَقَالَ لَهُمْ وَالدُّهُمْ: «أَنْتُمْ تَحْلُمُونَ، يَا أَوْلَادِي. أَنْتُمْ لَمْ تَتَّعَوِّدُوا أَنْ تَسْهَرُوا إِلَى مِثْلِ هَذَا الْوَقْتِ الْمُتَّاَخِرِ مِنَ اللَّيْلِ. لَا تَسْتَسْلِمُوا لِلْأَوْهَامِ. تَعَالَوْا نَصْعِنْ هَذَا الْجِذْعَ فِي النَّارِ لِنَتَّدَأْ عَلَيْهِ».



تَعَاوَنَ الْوَالِدُ وَابْنُهُ الْبِكْرُ عَلَى وَضْعِ الْجِذْعِ التَّقْيِيلِ فِي الْمُوْقِدِ، بَعْدَ أَنْ تَكَبَّدَا عَنَاءَ شَدِيدًا فِي حَمْلِهِ؛ ثُمَّ جَمَعَ الْحَطَابُ حُزْمَ الْأَكْحَشَابِ الَّتِي كَانَتْ مِنْ قَبْلُ مُوقَدَةً، فَأَدَنَاهَا إِلَى الْجِذْعِ لِتُشْعِلُهُ.

ثُمَّ جَلَسَتِ الْأُسْرَةُ كُلُّهَا مُسْتَسِلَّمَةً لِلتَّفَكِيرِ – فِي صَمْتٍ – عَلَى مَقَاعِدِ الْخَشَبِ، حَوْلَ الْمُوْقِدِ، لِيَبْهُجُوا نُفُوسَهُمْ بِرُؤْيَةِ جِذْعِ الشَّجَرَةِ وَهُوَ يَحْتَرِقُ.

(٦) سُكَانُ الْجِدْعِ

كان الجدع - كما قال أبوهم - أصل شجرة من «الكسندا». كان جدعاً معتقداً، أيسته حرارة الشمس على مر الأيام والسنين؛ فلم يلبث أن تشقق وكسرت فيه الثقوب. كانت النار تسري في الجدع بطبيئة.

أقبل رب الأسرة على أبنائه يقص عليهم مما وعاه في طفولته من عجائب الأسمار. كان الدخان يتصاعد من الموقد حلقات حلقات. سرعان ما برزت فجأة من أحد ثقوب الجدع نحلة خائفة مرتدة، وهي تطعن وتهز جناحيها الشفافين.

لا تسألو عما استولى على الأسرة من الرعب والفرع حين رأوا نحلة ثانية تندفع من الثقب، تتبعها ثالثة، فرابعة، وهكذا، حتى تآلف منها ثول (جماعه من النحل). انطلق الثول يطير في أرجاء الكوخ حائراً، لا يعرف له وجهه يقصد إليها.

(٧) حَدِيثُ النَّحْلَةِ



استقرت ملكة النحل على قمة كومة من الحطاب.

ظللت تتشاءم إبترتها (تحدها) برجليها، وتقول للأسرة في غضب شديد: «يا لگم من قسامة القلوب! لماذا تحرقون مسكننا؟

لقد احترت — أنا وأخواتي — ثقب هذا الجذع، لترقد فيه بهدوء طول الشتاء، حتى يجيء الربيع فنستأنف فيه أعمالنا التافعة.

ماذا أفعل من إزعاجنا، وطردنا من مسكننا الآمن وتشتيت جمعنا؟ ترى: أين نذهب وكيف يكون مأهلاً؟ كيف تحتمل برد الشتاء الذي تضعف فيه أجسادنا؟» فبادرت الأم قائلة: «لا تحرزني — أيتها النحلة الطيبة — ولا تتalarmي؛ فما نريد بأحد سوءاً.

كُنا نجهل أنكَن ساكنات في هذا الجذع. لو عرفنا هذا ما أزعجنا واحدة منكُن. كُن على ثقة أنكَن لن تبقى طويلاً بغير مأوى، ولن تتعرضن لبرد الشتاء القارس وردمهيريه.

هاكَن بيننا. أقم فيه على الرحب والسعفة آمنات مطمئنات، واحترن فيه مكاناً حاراً موافقاً لاحتكم.

إني ليسعني أن تؤمن عندنا فلا تفارقنا أبداً. تعالين، أيتها النحل. لن ترين إلا ما يسرُكُن. لن يكدر أحد صفاء الراحة والنوم عليكُن.

لن يمس أحد خلينكُن. كلَّا، لن يشتار (لن يجني) شيئاً مما جمعتن من الشهد، يا أميرة النحل. هاك تغرة أمامك في حائط الكوخ، على يمين الموقِد؛ فهل ترينها توافقك أنت ورقائقك؟

أعجبت أميرة النحل بأدبهما فقالت: «شكراً لك، أيتها المرأة الطيبة. أنت — على ما أرى — أهل للتكريم. أنا أقبل الضيافة بسرور وبتهامج. سنعيش جميعاً تحت سماء هذا البيت الوادي الجميل. لن تفوتنا السعادة فيه.»

طارت ملكة النحل إلى التغرة القريبة من الموقِد، ثمَّ تبعها التلول (جماعة النحل) واحتقين جميعاً في الخلية.

(٨) حديث الطائر

الْتَّهَبَ الْجِدْعُ فَانْبَعَثَ مِنْهُ – فَجَأًةً – صَرْخَةً أَلِمٍ مِنْ طَائِرٍ صَغِيرٍ، خَرَجَ مِنْ ثَقْبٍ آخَرَ.
ظَلَّ الطَّائِرُ الصَّغِيرُ يُرْفِرْفُ بِجَنَاحِيهِ الْأَرْزَقَيْنِ بِسُرْعَةٍ، ثُمَّ اسْتَقَرَ عَلَى مَسْنَدٍ كُرْسِيٍّ،
وَقَالَ لِلْحَطَابِ وَزَوْجِهِ بِصَوْتٍ عَالٍ، فِيهِ رَنَّةُ الْغَضِيبِ: «شَدَّ مَا قَسَوْتُمَا عَلَيَّ، إِذْ تُحَرِّبَانِ
بَيْتِي وَتُحْرِقَانِهِ.

كُنْتُ رَاقِداً فِي ثَقْبٍ مِنْ هَذَا الْجِدْعِ مُمْطَئِنًا. كُنْتُ آمُلُ أَنْ أَظَلَّ نَائِمًا رَيْثَمَا يَنْتَهِي فَصْلُ
الْبُرْدِ، وَتَهُبُّ نَسَمَاتُ الرَّبِيعِ الْلَّطِيفَةِ، وَتَسْتَيْقِظُ الْأَرْهَانُ.
لَكِنَّ سُوءَ حَظِّي قَادَكُمَا إِلَيَّ: فَأَبَيْتُمَا إِلَّا أَنْ تُزَعِّجَانِي، وَتُعَرِّضَانِي لِلْهَلاكِ بَيْنَ
الْعَوَاصِفِ وَتَحْتَ التُّلُوجِ..»



هُنَا قَالَتْ زَوْجُهُ الْحَطَابُ: «كَلَّا. لَنْ تَمُوتَ، أَيُّهَا الطَّائِرُ الظَّرِيفُ. سَتَجِدُ فِي قُرْبِ
مَوْقِدِنَا دِفْنَكَ وَمَأْوَاكَ، حِينُّ يَغْمُرُكَ حُبُّنَا، وَيُغَذِّيكَ فُتَاتُ مَائِدَتِنَا. وَمَتَى جَاءَ الرَّبِيعُ: فَصُلِّ

الأَرْهَارِ، واعْتَدَلَ الْجَوُّ، بَيْتٌ — إِنْ شِئْتَ — عُشَا لِأَفْرَاخِكَ، بَيْنَ الْأَوْرَاقِ، مِنَ الْحَشَائِشِ الصَّغِيرَةِ.»

فَرَحَ الطَّلَائِرُ الْأَرْقُ وَقَالَ: «شُكْرًا لَكِ، مَا أَكْرَمَكِ!» ثُمَّ طَارَ وَاسْتَقَرَ عَلَى الصُّوَانِ (دولابِ الثناءِ) الْقَدِيمِ الْمُحَاطِمِ.

(٩) حِدِيثُ الصَّفْدِعِ

خَرَجَتِ مِنْ ثَقْبٍ ثَالِثٍ صَفْدِعٌ غَضِيبٌ، مُتَفَخَّهٌ غَيْظًا. جَلَسَتِ الصَّفْدِعُ عَلَى مُقْدَمَةِ الْمَوْقِدِ. كَانَ حَجْمُ الصَّفْدِعِ أَكْبَرٌ مِنْ قَبْصَتِي الْيَدِيْنِ مُجْمِعَتِيْنِ. انْفَتَحَ فَمُهَا، وَنَدَلَّ لِسَانُهَا الطَّوِيلُ مِنْهُ. بَرَزَتِ مِنْ رَأْسِهَا عَيْنَانِ صَفَرَاوَانِ نَجْلَاوَانِ (واسعتانِ).

تَرَاجَعَ الْأَطْفَالُ مَدْهُوشِينَ حِينَ رَأَوْهَا، وَاسْتَمْعُوا إِلَيْهَا، وَهِيَ تَقُولُ بِصَوْتٍ كَالرَّاعِدِ: «تَبَّا لَكُمْ مِنْ قُسَّاءٍ! كَيْفَ تَجْرُؤُونَ عَلَى تَحْرِيبِ بَيْتِي وَإِحْرَاقِ مَسْكِنِي، بَعْدَ أَنْ عَشْتُ فِيهِ مَائِتَيْ عَامٍ كَامِلَةً، لَمْ أُسِئِ خِلَالَهَا إِلَى أَحَدٍ؟»

أَقْبَلَ عَلَيْهَا الْحَطَّابُ الشُّجَاعُ قَائِلًا: «هَدَئِي مِنْ رَوْعِكِ (سَكِّنِي مِنْ حَوْفِكِ)، أَئِنَّهَا الصَّفْدِعُ الْكَرِيمَةُ. أَيْقُنِي أَنَّنَا لَمْ نُفَكِّرْ — لَحْظَةً — فِي إِلْحَاقِ الْأَذَى بِكِ وَلَا بِغَيْرِكِ. لَنْ تَبْقِي بِغَيْرِ سَكِّنٍ. هَاكِ جُحْرًا عَمِيقًا تَحْتَ الْمَوْقِدِ. إِتَّخِذِيهِ — إِنْ شِئْتِ — سَكِّنًا هَادِئًا لِكِ.»

سَتَحْدِيدِينَ فِيهِ مَا يَكْفِيكِ مِنْ قَرَارٍ وَدِفْءٍ. سَنُعْطِيكِ — كُلَّ يَوْمٍ — مَا يُغَذِّيكِ مِنَ الْكَسْتَنَا، وَالْخَضْرِ الْمَسْلُوَقَةِ. لَوْ كُنَّا أَحْسَنَ حَالًا لَقَدْمَنَا لَكِ كُلُّ مَا تَشَتَّهِينَ.» فَرِحَتِ الصَّفْدِعُ وَقَالَتْ: «يَا لَكَ مِنْ گِرِيمِ شُكْرًا لَكَ. أَنْتَ ذَلِيلٌ عَلَى أَنَّ فِي الْعَالَمِ أَحْيَارًا شُرَفَاءَ. إِنِّي لَيُسْعِدُنِي أَنْ أَكُونَ ضَيْفَكَ.»

ثُمَّ قَفَزَتِ الصَّفْدِعُ مُتَبَاطِئَةً حَتَّى دَخَلَتِ الْجُحْرَ.

(١٠) حديث الخطاب

بعد قليل، خرج الخطاب وزوجه وأولادهما، بعد أن استأذنوا ضيوفهم. انطلقو يتهدّون - في أثناء تجوالهم - عما رأوه من العجب في ليلتهم. قال الوالد لأبنائه: «ها أنتم أولاء ترون أن الإنسان يستطيع - على قلة ماله - أن يعيش سعيداً. كما ترون أنه قادر - مهما يبلغ به الفقر - على أن يقدم المعموراً لمن هو أضعف منه قوّة واتّسّع حالاً. إذا أردتم السعادة الحقّ، فلا تترددوا في إسعاد من تستطعون إسعاده. لن يكمل الإنسان إلا إذا جمع بين حُسن النية وحسن العمل.»

(١١) القصر الجديد

مشوا في طريقهم إلى كوخهم، وقد امتلأت نفوسهم فرحاً وإيناساً، وثقة واطمئناناً، بما نعموا به من مناظر فاتنة، تحت السماء: تلك القبة الزرقاء، التي انتشرت فيها النجوم البديعة.

كان الجوع قد اشتدّ بهم، فأسرعوا ليأكلوا ما أعدوه في دارهم، من خبز يابس، وحساء قليل.

ولكنهم شدّ ما دهشووا إذ رأوا نوراً يظهر لاعينهم - فجأة - من بعيد، خيل إليهم أنه ينبعث من دارهم. لكنهم لم يصدّقو أعيتهم. ولما اقتربوا من البيت رأوا أضواء لا عهد لهم بيتها: رأوا مكان الكوخ قصراً فاخراً، مكتوباً عليه: «السعيد حسن الخطاب».

كادوا يحسبون - لو لا هذا اللوح المكتوب - أنهم ضلوا الطريق فدخلوا قصر الأمير. وزاد من دهشتهم أن قصر أميرهم ليس على مثل هذه الفخامة والرّوعة، وليس فيه مثل هذا الأناش البديع.

رأوا مائدة كبيرة حافلة بالصحاف والأطباق، وإلى جانبها كراسي لها كسوة من المخمل (النسيج فيه قطيفة) الأحمر، مزركشة بالذهب، وقد غصت المائدة بأجمل الأذهار واللؤلؤ.



وإليكم بعض ما حوتة المائدة:

هذا ديك رومي كبير مقليل بالسمين. إلى جانبه لذاذ من الشواء يتطاير قتارها الشهي
(رأيتها اللذيدة).

على مسافة قليلة منه كومة من شمع الشهد (عسل النحل)، في مثل صفرة الذهب
الخاص.

إلى اليسار جميع أصناف الفواكه، من: تفاح وكمنزى وبرنقال وعنب.

هنا أدركوا أن الطائر والنحلة والضفدع إنما قدصوا إلى مكافأتهم على معروفهم
فأعادوا لهم هذه المفاجأة السارة.

النفتت إليهم الضفدع قائلة: «نحن جنيات الشجرة وحراساتها. أردنا أن نجزيكم
على صبركم ومعروفكم خيرا. انتهينا فرصة العيد لتحقيق ما أردنا».

هُنَا تَحَوَّلَتِ الضَّفْدُعُ طَاهِيًّا صَنَاعًا كَبِيرَ الْبَطْنِ، أَحْمَرَ الْوَجْهِ، يَقِيضُ مُحَيَاهُ (وَجْهُهُ)
بِشْرًا وَسُرُورًا، وَعَلَى صَدْرِهِ فُوْطَتَانٍ كَبِيرَتَانٍ بِيَضْصَاوَانٍ. تَفَنَّنَتِ الضَّفْدُعُ فِي صُنْعِ الْحَلْوَى
لَهُمْ.

أَقْبَلَتِ مَلَكَةُ النَّحْلِ سَاهِرَةً عَلَى خَدْمَتِهِمْ، فِي صُورَةِ فَتَاهَةِ رَائِعَةِ الْخُسْنِ، عَلَى رَأْسِهَا
خَمَارٌ (سِتَّارٌ) حَرِيرِيُّ مُزْرُكُشٌ بِالذَّهَبِ.
ظَهَرَ الطَّائِرُ فِي هَيْنَةِ مُوسِيقِيٍّ بَارِعٍ، يَرْتَدِي سِرْوَالًا قَصِيرًا مِنَ الْمُخْمَلِ الْأَحْضَرِ، عَلَى
رَأْسِهِ قَلْنُسُوَّةٌ رَّزْقَاءُ، مُحَلَّةٌ بِرِيشِ النَّعَامِ. كَانَ يَعْزِفُ عَلَى الْعُودِ وَيُغَنِّي أَطْيَبَ الْأَلْحَانِ.
لَمَّا طَلَّ الْصِّبْحُ، رَأَوْا حَدِيقَةً غَنَاءً، تُحِيطُ بِقَصْرِهِمُ الْعَظِيمِ.
رَأَوْا خِرَانَةً كَبِيرَةً مَمْلُوءَةً بِأَنْثَمِ الْيَوَاقِيتِ وَأَنْفُسِ الَّلَّائِي لَمْ يَتَوَجَّدُ فِي خَزَائِنِ
الْمُلُوكِ.
مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ، أَطْلَقَ النَّاسُ عَلَى الْحَطَابِ لَقَبَ: «الْحَطَابِ السَّعِيدِ»، بَعْدَ أَنْ كَانُوا
يُطْلَقُونَ عَلَيْهِ لَقَبَ: الْحَطَابِ الْفَقِيرِ».

(١٢) حَاتِمَةُ الْقِصَّةِ

وَلَمَّا انتَهَتِ الْجَدَّةُ مِنْ قِصَّتِهَا، التَّفَتَتْ قَائِلَةً: «هَكَدَا تَرَوْنَ — أَيُّهَا النُّجَباءُ — أَنَّ فِي قُدْرَةِ
أَفْقَرِ إِنْسَانٍ أَنْ يُحْسِنَ إِلَى مَنْ هُوَ أَضْعَفُ مِنْهُ وَأَشَدُ فَقْرًا، وَأَنَّ فَعْلَ الْخَيْرِ لَنْ يَضِيعَ أَبَدًا،
وَأَنَّ السَّعِيدَ الْحَقَّ لَيْسَ هُوَ الْغَنِيُّ الْكَثِيرُ الْمَالِ.
بَلْ هُوَ مَنْ يَرْتَاحُ إِلَى الْإِحْسَانِ وَالْبَرِّ، وَتَبَهَّجُ نَفْسُهُ بِعَمَلِ الْخَيْرِ وَصُنْعِ الْجَمِيلِ».